

# الربيع العربي لم يُنْتِج ثورته الثقافية

كتبه نور الدين العلوي | 17 نوفمبر, 2022



سنكتب أن الربيع العربي لم يُنْتِج ثورته الثقافية بعد، حتى نحتفظ بشيء من أمل أن لن نظل في النص السياسي اليومي الميت، حيث استولى الاهتمام السياسي على كل المشاغل، فأغلب ما يمرّ بنا منشور في الفضاء العام بكل أشكال النشر، مهتمّ بالسياسي، يتبع بالتحليل مرة وبالتجويم مرات، وهو ما منع في تقديري حدوث ثورة ثقافية مشابهة لتلك الموجة الخالقة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى في الثقافة العربية.

ويوشك القرن أن يكتمل في كامل منطقة الثقافة العربية، ونحن نعيش بعد على تلك البدايات التي انطلقت تحت الاستعمار المباشر، نثير هنا إشكالات بحث ولا ندّعي وضع إجابات عليمة.

## ثورة ثقافية عربية تحت الاحتلال

لا نزعم هنا التاريخ للثقافة العربية الحديثة، فهو هم يتجاوز قدرتنا، لكن عندما نسترجع ثورة 1919 في مصر، ونستعيد مرحلة نشأة الأحزاب والنقابات في تونس في العشرينات (كمثالين من كل المنطقة)، نجد أن بدايات عقيرية قد أعطت توجهات كبرى، وخرج منها أعمال في الأدب والشعر والموسيقى والغناء، فضلاً عن السياسة.

وتلك البدايات العقيرية لا تزال تؤثّر وتوجّه رغم تباعد الزمن، حيث يكفي أن نقيس مكانة أم كلثوم

في نفوس العرب بعد قرن لنقدر أهمية مرحلة التأسيس.

في سياق هذه التأملات، كان يُنتَظر أن تقود الأنظمة التي تصدّت لبناء الدول الحديثة ثورة ثقافية ثانية، تمتلك من أسباب القوة أكثر مما ملك المؤسّسون تحت الاحتلال.

لكن تبدو لنا مرحلة الاستقلال السياسي مرحلة فقيرة ثقافياً، سيطرت عليها صيغ رسمية مملأة من الأنظمة، وتصدّرها مثقفو موالون تحكّموا في مساحات الحرية والإبداع، وجيّروا الفعل الثقافي لصالح الأنظمة، فلم يغدو النتاج الثقافي موجات من الثقافة الدعائية المؤلجة.

في هذه المرحلة وفدت تيارات فكرية وثقافية على منطقة الثقافة العربية، أهمّها المراجعات الثقافية اليسارية التي أنشأت لها منطقة نفوذ مستقلة عن ثقافة الدولة الرسمية، واتخذت في الغالب موقع العارضة لثقافة الدولة، ومنحت لنفسها ولأعلامها مكانة فوق النقد، ثم حولت رموزها الثقافية إلى أوثان مقدسة.

ابني وهيمن نتيجة لذلك وهم كبير مفاده أن الثقافة الحقيقية هي الثقافة اليسارية التقديمية، وكل ما عداها لغو رجعي يؤيد التخلف، وزاد في تأكيد حدود هذه الجزيرة الثقافية ظهور تيارات الإسلام السياسي بمرجعياتها القيمية المنغلقة ضد الثقافة الحديثة، والتي يسيطر فيها خطاب التحرير على خطاب الإبداع.

بني الإسلاميون، خاصة بعد السبعينيات، جزيرة أخرى خالية من الثقافة، زادت في غرور سكان الجزيرة الثقافية اليسارية التي تمنتّعت بتفوقها على مثقفي السلطة وعلى جماعات الإسلام السياسي المنكرة للتحديث الثقافي.

## خريطة الثقافة العربية فجر الربيع العربي

يمكن القول إن الخريطة الثقافية صبيحة الربيع العربي كانت جامدة إبداعياً، وكانت تكرر نفسها كناعورة ثابتة تراكمت فيها المراجع دون أن تصل إلى خلق منتج مشترك، فظلّلت الجزر الثقافية على حالها.

وحقّ محاولات الإسلام السياسي الخروج من منطقة التحرير إلى منطقة الإبداع ظلت محكومة بمحددات أخلاقية جامدة، زادها جموعاً ظهور تيارات سلفية أشد انغلاقاً وعداءً للثقافة الحديثة التي استحوذ عليها يسار عربي بدأ بروليتاريًا وانتهى برجوازيًا، استعاد في الواقع كثيرة ثقافة المحتل القديم ورّوج لها بصفتها عنوان التقدم ومعاداة الرجعية الدينية، أما الأنظمة الحاكمة فقد نسيت الفعل الثقافي وهوّمشته، مكتفية بتمتين جهاز الرقابة على كل لسان وقلم.

كانت الثقافة العربية تستقبل موجات عابرة من الفعل الثقافي الكوني فلا تهضمها، لذلك لم تستقر بها أية موجة مثل موجة موسيقى الراب أو رقص البريك دانس أو الموسيقى الإيقاعية الصاخبة، في

المجمل ثقافة لا تتجدد من داخلها ولا تتفاعل من موقع المؤثر على ما يفدي عليها من تيارات في عالم ثقافي معولم.

استقرت الذائقـة عند شعراء "أرباب" لا ينقدون، وروائيون لا تمثـل مواقـعهم إلا بالتمجيد الأكاديمي، وظهرت موجـات غـناء لا يسمعـها الناس مـرئـين، فـكان التـطور التقـني أدى إلى سـرعة التـخلـي والتـجاوز لكن دون خـلق وابتـكار يـخلـد ويـدوم.

ـكـأن مـثقـف السـلطة قد تحـول إلى مـثقـف بـوليـسـ، وتحـول المـثقـف الـيسـاري إلى مـثقـف سـلـفي تـقدمـيـ،ـ بيـنـما هـربـ المـثقـف الإـسلامـيـ من سـجـونـهـ إلى مـناـفـ لا يـتوـقـرـ فيـهاـ الخـبـزـ،ـ وـكانـ الـرـبيعـ الـعـربـيـ يـدعـوـ إلىـ ثـورـةـ ثـقـافـيةـ لـيـحـسنـ التـعبـيرـ عنـهاـ فيـ لـحظـةـ الثـورـةـ،ـ حـتـىـ أـنـ أـهـازـيجـهـ كـانـتـ إـعادـةـ تـوزـيعـ أـغـانـ قـديـمةـ بـكـلمـاتـ جـديـدةـ فـاقـدةـ لـلـوزـنـ.

## هل سـتـحدـثـ هـذـهـ الثـورـةـ يـوـمـاً؟

ـالـنكـسـاتـ السـيـاسـيـةـ،ـ خـاصـةـ فيـ تـونـسـ وـمـصـرـ،ـ فـرـضـتـ مـرـةـ أـخـرىـ هـيـمنـةـ السـيـاسـيـ الـيـومـيـ،ـ وـانـشـغلـ النـاسـ بـقـرـاءـةـ مـاـ يـجـريـ وـبـالـأـحـرـىـ مـاـ يـدـبـرـ لـهـمـ مـنـ مـكـائـدـ عـلـىـ يـدـ الـأـنـظـمـةـ الـعـائـدـةـ بـلـ بـرـنـامـجـ،ـ سـوـيـ قـمـعـ شـعـوبـهـاـ وـتـجـويـعـهـاـ لـتـحـولـ إـلـىـ سـوـائـمـ لـاهـثـةـ وـرـاءـ الـأـكـلـ وـالـدوـاءـ،ـ لـذـلـكـ إـنـ اـنـتـظـارـ ثـورـةـ ثـقـافـيةـ فيـ مـثـلـ هـذـاـ الـوـضـعـ هـوـ نـوـعـ مـنـ التـرـفـ الـفـكـريـ،ـ إـنـهـ بـمـثـابةـ طـلـبـ توـفـيرـ التـحـلـيـةـ دـوـنـ توـفـيرـ الـوـجـبةـ الرـئـيـسـيـةـ.

ـلـمـ يـسـمـحـ لـلـرـبيـعـ الـعـربـيـ أـنـ يـتـحـولـ إـلـىـ مـحـفـزـ ثـقـافـيـ يـكـسـرـ الـجـمـودـ السـائـدـ،ـ وـيفـتحـ الـجـزـرـ ثـقـافـيـةـ عـلـىـ بـعـضـهـاـ،ـ وـيـعـيدـ تـرـتـيبـ الـمـرجـعـيـاتـ عـلـىـ أـسـاسـ إـبـداعـيـ،ـ لـذـلـكـ نـسـتـشـعـرـ عـودـةـ الـبـكـائـيـاتـ وـالـمـرـايـ الشـعـرـيـةـ الـتـيـ يـتـقـنـهـاـ المـثقـفـ الـيـسـاريـ،ـ وـالـتـيـ تـدـرـبـ عـلـيـهـاـ جـيـداـ بـعـدـ هـزـيـمةـ 67ـ،ـ رـغـمـ أـنـ هـذـاـ المـثقـفـ فيـ الـأـعـمـ الـلـطـلـقـ انـحـازـ لـحـرـكـةـ الـرـدـةـ عـلـىـ الثـورـةـ،ـ وـدـافـعـ عـنـ الـعـسـكـرـ فـيـ نـفـسـ الـوقـتـ الـذـيـ يـسـوـقـ لـخـطـابـهـ الـشـفـقـ عـلـىـ الـفـقـراءـ،ـ فـيـ نـغـمـةـ مـكـرـرـةـ فـقـدـتـ قـدـرـتـهـاـ عـلـىـ التـأـثـيرـ وـالـإـقـنـاعـ بـصـدقـهـاـ.

ـفـيـ تـونـسـ،ـ وـهـيـ سـاحـةـ أـعـرـفـ كـثـيرـاـ مـنـ تـفـاصـيلـهـاـ،ـ تـوـجـدـ مـوجـةـ مـنـ الـكـتـابـ الـإـسـلامـيـنـ الـذـينـ أـقـرـواـ لـأـنـفـسـهـمـ حـقـ الـكتـابـةـ،ـ لـكـنـهـاـ لـاـ تـزالـ مـوجـةـ تـنـدـبـ حـظـرـهاـ الـعـاثـرـ فـيـ مـاـ يـسـمـىـ بـأـدـبـ السـجـونـ،ـ وـلـمـ يـخـرـجـ الـكـتـابـ وـالـشـعـراءـ مـنـ رـثـاءـ أـنـفـسـهـمـ،ـ أـوـ تـمـجيـدـ بـطـولـتـهـمـ فـيـ زـمـنـ الـقـمـعـ.

ـهـذـهـ لـيـسـتـ ثـورـةـ ثـقـافـيـةـ وـلـاـ يـمـكـنـ مـقارـنـتـهـاـ بـثـورـةـ 1919ـ فـيـ مـصـرـ الـتـيـ عـمـرـتـ قـرـنـاـ وـلـاـ نـزالـ نـعيـشـ بـكـرـمـهـاـ،ـ هـلـ تـتأـخـرـ الـثـورـاتـ الـثـقـافـيـةـ وـتـأـتـيـ لـاحـقـةـ لـلـثـورـاتـ السـيـاسـيـةـ؟ـ هـذـهـ إـحدـىـ مـسـلـمـاتـ الـحـقـ الـثـقـافـيـ الـمـتـدـاولـةـ،ـ لـكـنـ الفـصـلـ بـيـنـ الـثـقـافـيـ وـالـسـيـاسـيـ يـعـظـلـ الـسـيـاسـيـ وـالـثـقـافـيـ مـعـاـ،ـ وـيـجـعـلـ كـلـ حـرـاكـ قـاصـرـاـ بـلـاـ مـضـمـونـ تـغـيـيرـ فـعـالـ،ـ وـإـنـمـاـ مـجـرـدـ تـمـوجـ قـشـريـ لـاـ يـنـفـذـ إـلـىـ بـنـاءـ مـشـروعـ ثـورـةـ.

ـحـقـ الـلحـظـةـ يـأـخـذـنـاـ السـيـاسـيـ مـنـ الـثـقـافـيـ،ـ وـنـدـخـلـ مـعـ الـلـاهـثـيـنـ وـرـاءـ الـخـبـزـ وـالـدـوـاءـ،ـ فـالـرـدـةـ الـعـربـيـةـ عـلـىـ الـرـبيـعـ الـعـربـيـ عـرـفـتـ قـيـمـةـ الـثـقـافـيـ الـمـؤـسـسـ فـقـطـعـتـ عـلـيـهـ الـطـرـيقـ،ـ وـلـعـلـّـ فـيـ ذـلـكـ خـيـرـ،ـ فـقـدـ

أخذت في طريقها سكان جزيرة اليسار الثقافي المتباين على الفقراء على مائدة حكام الردة العرب.

رابط المقال : <https://www.noonpost.com/45810>